المحاضرة العاشرة : شبهات المستشرقين حول إعجاز القرآن الكريم :

لما كان إعجاز القرآن الكريم أول دليل على مصدر القرآن الإلهي وبه ثبوت صدق رسالة النبي ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ لذا وجه المستشرقون له معاول هدمهم وتشكيكاتهم بالطعن في ربانية مصدره تارة وفي ترابطه وتناسقه وجمال أسلوبه وبلاغته وفصاحته تارة أخرى ، مرددين ما ردده المشركون الأوائل ، ومضيفين لافتراءات أولئك ما أسعفهم به ذكاؤهم وعلمهم ، لذا تعددت أقوالهم وافتراءاتهم حول هذه القضية القرآنية الخطيرة.

وقد اختلف المستشرقون كذلك في القدر المعجز من القرآن الكريم واعتبر «سال» أن من يقول بإعجاز الكلمة والكلمتين منه نوع من الشطط ، وزعم أنه يترتب على هذا اعتبار أن ما جاء به على لسان آخرين هو معجز كما أنه اعتبر أن الإعجاز في سبك معانيه لا في لفظه [١].

فبالنسبة للمقدار المعجز من القرآن الكريم قد سبق المستشرقين في هذا الاختلاف علماء مسلمون وكانوا على أقوال عدة :

١ ـ الجمهور اعتبر أن الإعجاز يتحقق بالسورة القرآنية طويلة كانت أو قصيرة. وقد اعتبروا أن هذا القدر هو الذي تؤيده الأدلة القرآنية ، وظاهر مراحل التحدي.

٢ ـ بعض المعتزلة قال : إن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن الكريم لا ببعضه. وهذا يعارض آيات التحدي بعشر سور أو بسورة واحدة.

٣ ـ ذهبت طائفة أن الإعجاز يتحقق بالقليل والكثير من القرآن الكريم دون التقيد بسورة ، مستدلين بظاهر قوله تعالى : (**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ**)[١] مفسرين الحديث أنه أي كلام يفيد معنى سواء كان آية أو أكثر أو أقل [٢].

فمن هنا يظهر لنا جليا أن «سال» قد تبنى رأيا مرجوحا وبنى عليه نتائج يريد تحقيقها ، فعبارته [أنه يترتب عليه أن ما ورد فيه من حكاية قول الآخرين معجز ضاهوا به فصاحة ما يزعم أنه قرآن][٣].

يريد «سال» أن يؤكد أن في القرآن صنعة بشرية معتمدا على ما حكي على لسان بعض الناس أو المخلوقات في القرآن إخبارا من الله سبحانه وتعالى بما كان يحصل في هذه المواقف بين الرسل وأقوامهم أو غير ذلك من آيات فيما بعد. حيث يظهر لنا أن كل ما بين دفتي المصحف هو كلام رب العالمين. سواء كان على لسان شخص أو سواه.

أما اعتبار «سال» أن الإعجاز في سبك المعاني لا في الألفاظ [٤]. فهذا الرأي غير دقيق لأن كل شيء في القرآن معجز فهو معجز في بلاغته وفصاحته وفي جزالة ألفاظه ، وحسن معانيه وفي نظمه البديع ، باختياره الكلمة ووضعها في المكان الذي تقوم به بوظيفتها على أحسن وجه وأتمه.

لذا فإعجاز القرآن الكريم بلفظ القرآن ومعناه الذي منهما تظهر الصور البلاغية والبيانية البديعة التي تفرد بها القرآن الكريم.

قال عبد القاهر الجرجاني : [أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها .. وبهرهم أنهم تأملوه .. فلم يجدوا في الجميع كلمة

ينبو مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق. بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما ، لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء ، موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول ..] إلخ [١] والألفاظ أوعية المعاني .. فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أو لا في النطق [٢].

ولا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه وتتوخى ترتيب المعنى قبل ترتيب الألفاظ.

وإذا كنا ننكر على غير ذوي الاختصاص من أهل اللغة أن يخوضوا فيما لم يعرفوا من أسرار القرآن وبلاغته ، فلنحن أشد إنكارا على أولئك المستشرقين الذين عدموا الذوق العربي والحس اللغوي ، وإشراق الروح وصفاء النفس أن يقحموا أنفسهم في ميدان ليسوا من فرسانه وأهله ليخرجوا على الناس بآراء في قمة الغرابة في إعجاز القرآن الكريم وفي الأسلوب القرآني البديع [٣].

والآن سأعرض لمجمل شبههم التي ارتكزوا عليها في إبطال قضية إعجاز القرآن الكريم من خلال ما ذكر «سال» في هذه القضية في كتابه (أسرار عن القرآن).

الشبهة الأولى :

زعموا أن القرآن فيه كلام متعارض مما يدل على أنه ليس من عند الله ـ سبحانه ـ في شيء لأن الله لا يعارض نفسه ، ولا ينقض بعض كلامه بعضا ، ومصنف القرآن نفسه يقول عن كتابه أنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ونحن نجد فيه اختلافا كثيرا مما يدل أنه ليس من عند الله [٢]. واستدل «سال» لذلك ببعض الأمثلة سأرد عليها بعد قليل ـ إن شاء الله ـ.

الجواب :

جاء القرآن الكريم معجزة لنبينا محمد ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ ليشهد على صدقه وصحة نبوته لذا اشتمل القرآن الكريم على ثلاثة أمور دالة على صدق محمد ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ :

١ ـ فصاحته.

٢ ـ اشتماله على الإخبار عن الغيوب.

٣ ـ سلامته عن الاختلاف [٣].

قال تعالى : (**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**)[٤].

فمن تدبر القرآن الكريم وجده سليما من الاختلاف ، لا منافاة ولا مناقضة بين شيء من آياته ومعانيه البتة. مع أنه كتاب كبير مشتمل على كثير من المعاني على نفس الرتبة من الفصاحة لا فرق بين مكيه ومدنيه ، ولا آيات عقائده أو آيات تشريعاته .. إلخ.

فلما كان هذا القرآن نسجا واحدا في فصاحته ، وبلاغته ، ونظمه ، وكان كله بالغا حد الإعجاز علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره ، عالم بما لا يعلمه أحد سواه ، وهو الله سبحانه وتعالى [١] وعدم وقوف بعض الناس على هذا الجانب في كتاب الله ـ سبحانه ـ عائد لعجزهم وضعفهم وقصور علمهم لا لضعف في كتاب الله ، ولا تدافع وتناقض في آياته.

وعلى رأس هؤلاء الذين أعجزتهم فصاحته ، وغلبت أفهامهم بلاغته ، وأبهرهم حسن نظمه ومعانيه ، المبشرون والمستشرقون ، من أجل ذلك نسبوا له التناقض والتدافع والتعارض بين آياته ليدفعوا جانب الإعجاز فيه فبذلوا وسعهم في الاستدلال على زعمهم بأدلة لم يفهموا معانيها ولم يقدروا على الجمع بين آياتها وسأبين وجه الصواب فيها.

المثال الأول :

قال الله تعالى في سورة النحل عن القرآن : (**لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**)[٢]. والمبين ما لا يحتاج إلى تأويل.

فنقض ذلك بقوله في سورة آل عمران [٣] أنه فيه آيات متشابهات وأنه لا يعلم تأويله إلا الله [٤].

الجواب :

الآيتان ليس بينهما تناقض فالآيات قسمان :قسم محكم : وهو البين والواضح الذي لا يحتمل تأويلا وهذا يؤيده آية النحل السابقة.

وقسم متشابه : وهو الذي يحتمل أكثر من وجه وهذا الذي يخفى على كثير من الناس ولا يعلم تأويله إلا العالمون. ويؤيده آية آل عمران قال تعالى : (**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ ..**)[١] فالحكمة اقتضت أن تكون آيات الكتاب قسمين ، قسم يفهمه عامة الناس ، وقسم لا يفهمه إلا العالمون.

والحكمة في تنزيل المتشابه من الآيات لإظهار فضل العلم والعلماء ومن أجل التنافس في تعلم كتاب الله ـ عزوجل ـ وابتلاء واختبارا لإيمان الناس (**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ**) وأما العالمون المؤمنون به (**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا**).

كما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين أن في كتابه آيات يحتاج الناس لمن يبينها لهم كبيان رسول الله ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ لصحابته قال تعالى : (**وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**)[١].

وقد وضح ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ هذا الأمر بقوله : [التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى][٢].

وكان يشكل بعض معاني القرآن الكريم على بعض الصحابة فيلتجئون لبعض علماء الصحابة لتوضيح ما غمض وأشكل عليهم فقد روى البخاري بسنده إلى سعيد أن

رجلا قال لابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال : (**فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ**) [٣] (**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ**) [٤] ... فقال ابن عباس : فلا أنساب بينهم في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون .. فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله [٥].

فمن هنا يظهر لنا بطلان شبهة «سال» بما استدل به من تناقض بين هاتين الآيتين.

الشبهة الثانية : قال في سورة يونس خطابا لفرعون وقد اتبع بني إسرائيل بغيا حتى أدركه الغرق (**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**)[٦].

ويترتب على هذا الكلام أن الله نجى فرعون من الغرق فنقض ذلك بقوله في سورة الإسراء (**فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً**)[١] وبقوله في سورة القصص (**فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ**)[٢].

فالآية تدل على نجاة فرعون من الغرق بعد ما أشرف عليه حتى يكون آية لمن خلفه من المصريين وهذا هو المعنى الذي أراده القرآن وإن كره المفسرون الذين فسروه أنه ألقى بدنه مجردا من الروح على نجوة ليكون آية لبني إسرائيل ..][٣].

الجواب :

هذه الآيات ليس بينها شيء من التناقض فآيتا سورة الإسراء والقصص صريحتان في موت فرعون غرقا ، أما الآية الثالثة التي وقع فيها اللّبس بالنسبة ل «سال» فهي موافقة لما في الآيتين من المعنى فهذه الآية جاءت لتصور ما كان في نفوس بني إسرائيل لفرعون من مكانة ومهابة حتى إنهم تصوروا أنه لن يغرق لأنه رب ـ على حد زعمه ـ ولم يصدقوا غرقه حتى شاهدوه بأعينهم مقذوفا من البحر على مرتفع من الساحل فكان في ذلك أبلغ العبرة لنصرة الله لهم ، وتأييده للمؤمنين [٤].

فالآية إذن لا توافق فهم «سال» وتعسفه في تفسير النص فيكون معنى (**لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ**) أي علامة لمن وراءك من بني إسرائيل لأنه طرح على ممرهم من ناحية البحر.